السنة الثالثة — العدد الحادي عشر — ذو القعدة ١٣٩٢ هـ — تشرين الثاني ١٩٧٢ م

الفكر الإسلامي

مجلة شهرية إسلامية فكرية

العنوان: لبنان - بيروت - دار الفتوى - شارع ابن رشد - تلفون: ٣٠٤٥٢٢ - ٣٠٤٥١٩

المشرف العام: رئيس التحرير:

● الشيخ عبد الله العلايلي

مجلس ادارة المجلة

السادة:

● د. الشيخ صبحي الصالح
● الشيخ طه الصابونجي
● الشيخ خليل الميس
● الاستاذ منير البعلبكي
● الاستاذ بهيج عثمان
● الاستاذ حسين القوتلي

المدير المسؤول:

● الاستاذ مصطفى القصاص

الاشتراك السنوي:

للأفراد: ١٠ ليرات لبنانية
للمؤسسات: ٢٥ ليرة لبنانية
أو ما يعادلها بالعملات الأجنبية بالاضافة إلى اجرة البريد الجوي للاشتراك الخارجي.

ثمن العدد:

لبنان	١٠٠	قرش
سوريا	١٠٠	قرش
الاردن	١٢٥	فلساً
العراق	١٢٥	فلساً
السعودية	٢	ريالان
الكويت	١٥٠	فلساً
تونس	٢	فرنكان
المغرب	٢	فرنكان
ج.ع.م.	١٠	قروش
السودان	١٥	قرشاً
قطر	٢	ريالان
دبي	٢	ريالان
أبو ظبي	٢٠٠	فلس
عدن	٢٢٥	فلساً
ليبيا	١٥	قرشاً
البحرين	٢٠٠	فلس.

الفكر الإسلامي مجلة شهرية تصدرها دار الفتوى الاسلامية في بيروت وهي منبر حر لأهل الفكر ولكنها لا تتحمل بالضرورة تبعة الآراء التي تنطوي عليها بحوثهم وهي تدعو الباحثين والكتاب الى التعاون معها في خدمة البحث العلمي والمعرفة الحقة وخاصة في الشؤون الإسلامية

آراء الإسلاميين والمستشرقين
حول الفلسفة الإسلامية

بقلم الدكتور محمد عاطف العراقي

أولا : تمهيد : آراء بعض المستشرقين حول الفلسفة العربية :

في مقالتنا هذه ، وفي حدود النطاق المرسوم لها ، سندرس بايجاز قضيتين ترتبطان كل منهما بالأخرى . القضية الأولى هي بيان آراء نفر من المستشرقين والمؤلفين الاسلاميين حول الفلسفة الإسلامية ، والذين انتهوا الى القول بعدم أصالتها وأنها نسخة مكررة من الفلسفة اليونانية ، بحيث يكون كل الفرق بينها وبين الفلسفة اليونانية هو في اللغة التي عبرت بها كل فلسفة عن نظرياتها وآرائها ، أو القول بأن العجم لا العرب هم الذين خلفوا لنا ثماراً فلسفية .

والقضية الثانية هي رد على النتائج التي توصل إليها بعض المستشرقين، بحيث ننتهى بعد التحليل والمناقشة الى الاعتراف بأن هناك فلسفة عربية لها دورها البارز في التطور الحضاري خلال تاريخ البشرية ، وأنها تختلف عن غيرها من الفلسفات كالفلسفة اليونانية ، إذ كان لها مشكلاتها الخاصة بها وآراؤها التي إن اتفقت مع آراء فلاسفة اليونان تارة ، إلا أنها تختلف عن آرائهم تارة أخرى .

لم يسلم بعض المستشرقين بأهمية وأصالة الفلسفة العربية الإسلامية . ومعنى

هذا أن قضية وجود فلسفة عربية لم تكن موضع اعتراف من جانب كل المشتغلين بها ، بل وجـــد من المفكرين من وضع جدة وأهمية الفلسفة الاسلامية موضع الشك ، بل الإنكار .

فمن المستشرقين من يرى أنه ليس في طبيعة العرب التفلسف وابداع المذاهب الفلسفية . ومنهم من يرى أنهم تأثروا باليونانيين غاية التأثر ، بحيث أن فلسفتهم لا تخرج عما أبدعه فلاسفة اليونان من مذاهب وخاصة أرسطو والأفلاطونية المحدثة .

قلنا إن هناك نفر مـــن المستشرقين يُرجع عدم تفلسف العرب إلى طبيعتهم . وقد توصل هذا الفريق إلى ذلك بالتفرقة بين ما يزعمونه من تقسيم الناس إلى جنس آري وجنس سامي . فالجنس الآري هو وحده القادر عـــلى التفلسف وإبداع المذاهب الفلسفية . أما الجنس السامي فلا يستطيع ذلك ، بحيث كان كل عمله هو نقل دائرة المعارف الفلسفية اليونانية وعدم الخروج عليها .

والواقع أن تقسيم الناس إلى ساميين وآريين ، هو ما فعله الباحثون في تاريخ اللغات في القرن التاسع عشر[1] .

وإذا كان علماء اللغات قد فعلوا ذلك ، فإن بعض الباحثين في الفكر العربـي حاول أن يعمم هذا القول بحيث يجعله مميزاً لكل عقلية من العقليتين. أي أنهم جعلوا هذه التفرقة اللغوية أساساً للحكم على المباحث الفلسفية .

ومن المفكرين الذين يمثلون هـــذا الاتجاه أوضح تمثيل إرنست رينان فإذا رجعنا إلى كتابه عن تاريخ اللغات السامية وجدناه يفرق تفرقـــة تامـــة بين جنس سامي وجنس آري . ثم نراه يقول في كتابه « ابن رشد والرشدية » : لا يمكننا أن نجد عند الجنس السامي مذاهب فلسفية.

---

١ مصطفى عبد الرازق : تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ص ٩ .

إذ أن هـــذا الجنس لم يثمر أي بحث فلسفي خاص ، بحيث أن الفلسفة عند الساميين ما هي إلا مجرد اقتباس وتقليد للفلسفة اليونانية . وسنعود الى مناقشة رأي رينان هذا الذي ذهب اليه ، والذي تابعه فيه بعض الباحثين في الفكر الفلسفي العربـي .

وليون جوتييه هو الآخر قد ذهب هذا المذهب . أي أنـــه يسلم بقضية الجنس الآري والجنس السامي . إنه يقول : إن الجنس السامي والجنس الآري يتجهان اتجاهين متضادين تمام التضاد ، مثل طرفي مقابلة. فالعقلية السامية تميل إلى قرن الأشباه والأضداد دون ربطها بما يجعل منها وحدة ، بل تتركها منفصل بعضها عن بعض ، ثم تنتقل من إحداها الى الأخرى دون واسطة بوثبة فجائية . أما في العقلية الآرية ، فالأمر بالعكس. إذ أنها تنزع الى الربط بين هذه وتلك بوسائط متدرجة ، فلا تنتقل من طرف إلى آخر إلا بدرجات لا تكاد تكون محساً بها بالقدر الممكن . إنها تسير على نظام الألوان المذاب بعضها في بعض[1] .

وهذا كله امتداد لدعوة رينان التي سبق أن أشرنا إليها . دعوة التفرقة بين عقلية جنس سامي تمثل الفصل والمباعدة لا الجمع والتأليف ، وتدرك الجزئيات دون ترتيب وتناسق ، بحيث لا تتمكن من التوصل الى القضايا الكلية والقوانين العامة . وإذا لم نتوصل إلى هذه القضايا والقوانين ، فقد عجزنا عن تحقيق الأصالة والابتكار . والعقلية الأخرى هي عقلية الجنس الآري وهي وحدها دون غيرها ، تحاول بفطرتها التأليف بين عناصر الأشياء بتناسق وترتيب ونظام يؤدي إلى الجمع وامتزاج العناصر . وفي هذا تكمن قدرتهم على الدقة في البحث والتوصل إلى أعمق النتائج في الدراسات التي يقومون بها .

---

١ المدخل لدراسة الفلسفة الإسلامية ص ١٠٥ من الترجمة العربية .

وإذا كان رينان ومن تابعه يصدرون حكمهم على الفلسفة العربية بالتفرقة بين جنس سامي وجنس آري ، فإن هنـــاك نفر من المستشرقين قد ذهبوا إلى أن عـــدم إبداع ما نسميهم بفلاسفة الاسلام ، للمذاهب الفلسفية ، يرجع إلى أسباب عديدة متناثرة ، منها كتاب المسلمين المقدس أي القرآن الكريم ، ومنها أن في طبيعة العرب التأثر بالأوهام وهذا التأثر بالاوهام يتنافى وإبداع المذاهب الفلسفية ،إلى غير ذلك من دعوات كثيرة .

والواقع أن هذه الدعاوى وما يدور في فلكها تعد دعاوى ظاهرهـــا وباطنها التعصب سواء كـــان تعصباً جنسياً أو تعصباً دينياً . نعم تعصب جنسي لأن فيها تقليل من شأن عقلية العرب ، رغم أن المنصف لو اطلع عـــلى كتب فلاسفة الاسلام وعلماء العرب ، الذين بحثوا في الرياضيات والطبيعيات وغيرهما من علوم وفنون ، لعلم مبلغ الدقة التي توصل مفكرو الإسلام اليها .

وتعصب ديني لأن فيها قول بأن القرآن قد عاق العرب عن التفلسف. وهذا القول قول جائر لأن القرآن يحث في أكثر آياته – كما سنرى – على التأمل والبحث والنظر في جنبات الكون .

أما عن رينان فإنه غير محق في أشياء كثيرة ، منها إلقاء اللوم عـلى فلاسفة العرب للأخطاء التي حدثت في الترجمات عن اليونانية عـــلى النحو الذي نجده عند بعض فلاسفة العرب ، حين نسبوا آراء لأرسطو لم يقل بها ، بل قال بها أفلوطين في كتابه التاسوعات . إن اللوم يجب أن يلقى إلى حد كبير على المترجمين ، لا على فلاسفة العرب الذين اعتمدوا على هذه الترجمات التي وصلت إليهم . بالإضافة إلى أن عصرهم لم يكن فيه ما عندنا الآن من وسائـــل النقد العلمي الدقيق والذي بواسطته نميز بين كتب الفيلسوف وكتب غيره .

والواقع أن رينـــان يتناقض مع نفسه في بعض الأحوال . إنـــه

في الوقت الذي يطلق فيه أحكامه على فلسفة مفكري العرب ، يقول في معرض دراسته لآراء ابن رشد الفيلسوف الأندلسي ، أن ابن رشد إذا كان لم يطمح إلى مكانة أفضل من مكانة الشارح لآراء أرسطو ، فإننـــا – فيما يقول رينان نفسه – يجب ألا ننخدع بهـــذا التواضع من جانب ابن رشد ، إذ أن العقل البشري يطالب باستقلاله ، وإذا ما قيدناه بنص من النصوص ، عرف كيف يجـــد حريته في تفسير هذا النص وتكوين رأي حوله [1] .

كما أن رينان يعترف بأهمية آراء الفرق الاسلامية ويقول إن هذه الفرق هي التي يجب أن نبحث فيها عن الحركة الفلسفية في الإسلام [2] .

كما يقول إن آراء هذه الفرق الدينية التي صدرت عن الاسلام هي التي تدلنا على شخصية العرب [3] .

قلنا إن رينان يقيم دعوته على التفرقة بين جنس آري وجنس سامي . وهذه التفرقة لم يعد لها مكان في القرن العشرين بين النفوذ الواسع الذي كان لها في القرن التاسع عشر . فهذا بول ماسون أورسيل يقول : « لقد ساد في القرن التاسع عشر اعتقـــاد بوجود عناصر واجناس مختلفة ينقسم إليها الناس . لكن العنصرية مهما اشتدت الآن أصبحت مقصورة على مجرد وضع سياسي . ولا نريد معارضة ما جاء به علم الأجناس البشرية مـــن الأسانيد المدعمة فيما يتعلق بتعيين الأشكال المتميزة ، إلا أننا نعلم علم اليقين أنه لا وجود للعناصر النقية إلا في بعض حالات التحديد . وعـــلى ذلك

---

1 - Renan : Averroes et L'averroisme P. 83.

2 - Jabid P. 84

(3) Ibid P. 92.

فالأمر خارج عن طور التجارب [1] .

ومعنى هذا أن الفروق بين الأجناس لا وجود لها — فيما يقول ماسون أورسيل — إلا في الميدان اللغوي ، بحيث تستند العنصرية إلى مقياس لغوي لا مقياس جنسي [2] .

ننتهي بعد هذه الإشارة الموجزة لآراء بعض المستشرقين الغربيين ورد فريق آخر من المستشرقين عليهم ، إلى أن الكثير من القضايا والأحكام والإتهامات التي وجهت الى الفلسفة الإسلامية العربية قد تلاشت وفي طريقها إلى الزوال زوالاً نهائياً . وذلك لأن هذه القضايا والاتهامات والأحكام لم تقم على جذور ثابتة من البحث العلمي النقدي الدقيق ، بل قام أكثرها على الهوى والعصبية الجنسية أو الدينية . والنزاهة العلمية ، ودراسة حقيقة الفلسفة العربية — كما سنرى — تدحض هذه الأحكام المتسرعة دحضاً تاماً. وسنعود بعد قليل لبيان أن هناك مشكلات خاصة بالفلسفة الاسلامية دون غيرها من الفلسفات السابقة عليها . كما أن هناك آراء قال بهـا فلاسفة العرب ولم يسبقهم إليها فلاسفة اليونان .

وهذا كله يؤدي بالتالي إلى القول، بأن الفلسفة العربية لم تكن — فيما يزعم بعض المستشرقين — نسخة مكررة منقولة عن مذاهب فلاسفة اليونان بصفة عامة وأرسطو بصفة خاصة . كما أن القرآن لم يكن عائقاً — فيما يزعـم البعض — أمام البحث الفلسفي الدقيق ، ولكنه كان مصدراً ، ومصدراً أساسياً تأثر به مفكرو الإسلام تأثراً كبيراً في وضعهم لنظرياتهم الفلسفية الدقيقة ، كما كان بآياته العديدة وما تحمله من معان ، داعياً وموجهـاً ومشجعاً للبحث الفلسفي . ولسنا الآن بصدد ذكر الآيـات العديدة التي يستخلص منها تشجيع النظر الفلسفي ، وسيأتي ذلك فيما بعد .

---

١ الفلسفة في الشرق ص ٢٠ من الترجمة العربية

٢ المصدر السابق ص ٢١ .

ثانياً : آراء بعض الإسلاميين :

إذا كان بعض المستشرقين – كما سبق أن ذكرنا – قد شنوا هجومهم على الفلسفة الإسلامية مستندين إلى التفرقة بين جنس آري وجنس سامي تارة ، وذاكرين أن القرآن الكريم قـد عاق حرية الفكر تارة ثانية ، وقائلين إن مذاهب فلاسفة العرب لا تخرج عن دائرة المعارف اليونانيـة تارة ثالثة ، فإن هناك من المفكرين الاسلاميين كابن خلدون والشهرستاني وصاعد ، مـن ذهب الى القول بأن أكثر من ساهموا في العلوم العقلية إنما هم من العجم وليسوا من العرب .

ونود أن نشير إلى أننا إذا كنا قد بدأنا ببيان رأى بعض المستشرقين قبل بياننا لآراء الإسلاميين رغم أن الاسلاميين يسبقون تاريخياً هؤلاء المستشرقين الغربيين، فإن سبب ذلك أن دعوة أمثال ابن خلدون وصاعد والشهرستاني لا تمثل هجوماً وخطراً كذلك الذي يتمثل في رأي المستشرقين ، بالاضافة إلى أننا نرى من جانبنا وخلافاً لما يذهب اليه البعض ، أنه لا توجد صلة قويـة بين ذهاب نفر من الاسلاميين الى تفضيل العجم على العرب ، وبين تمييز بعض المستشرقين العقلية الآريـة عن العقلية السامية وخاصة هؤلاء الذين يقولون بأن القرآن يعوق البحث والتفكير .

نعود بعد ذلك إلى الكشف عن آراء من ذكرناهم منذ قليل .

يقول صاعد : « ... أما علم الفلسفة فلم يمنحهم الله عز وجل شيئاً منه ولا هيأ طباعهم للعناية به . ولا أعلم أحداً من صميم العرب شهر به إلا أبا يوسف يعقوب بن اسحق الكندي وأبا محمد الحسن الهمداني »[1].

أما ابن خلدون فيقول في الفصل الحادي والعشرين من الباب الخامس

---

١ طبقات الأمم ص ٧٠ . ولمناقشة رأيه يمكن الرجوع إلى« تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية : لمصطفى عبد الرازق ص ٣١ وما بعدها .

من مقدمته: إن العرب أبعد الناس عن الصنائع[1]. ثم يعقد الفصل الرابع والأربعين من الباب السادس من مقدمته ليحاول فيه البرهنة على أن حملة العلم في الاسلام أكثرهم العجم[2].

وسنورد فيما يلي نصاً من مقدمته يوضح هذا الاتجاه:

« من الغريب الواقع أن حملة العلم في الملّة الاسلامية أكثرهم العجم، لا من العلوم الشرعية ولا من العلوم العقلية إلا في القليل النادر، وإن كان منهم العربي في نسبه فهو عجمي في لغته ومرباه ومشيخته، مع أن الملّة عربيـــة وصاحب شريعتها عربي. والسبب في ذلك أن الملّة في أولهـــا لم يكن فيها علم ولا صناعة لمقتضى أحوال السذاجة والبداوة، وإنما أحكام الشريعة التي هي أوامر الله ونواهيه كـــان الرجال ينقلونها في صدورهم وقد عرفوا مأخذها من الكتاب والسنّة بمـــا تلقوه من صاحب الشرع وأصحابه. والقوم يومئذ عرب لم يعرفوا أمر التعليم والتأليف والتدوين ولا دفعوا اليه ولا دعتهم اليـــه حاجة. وجرى الأمر على ذلك زمن الصحابة والتابعين.

فلما بعد النقل من لدن دولة الرشيد فما بعد، احتيـج الى وضع التفاسير القرآنية وتقييد الحديث مخافة ضياعه. ثم احتيـج الى معرفـــة الأسانيد وتعديل الناقلين للتمييز بين الصحيـح من الأسانيد وما دونه ... وقد كنا قدمنا أن الصنائع من منتحل الحضر، وأن العرب أبعد الناس عنهـــا. فصارت العلوم لذلك حضرية وبعد عنها العرب وعن سوقهـــا. فكان صاحب صناعة النحو، سيبويه والفارسي من بعده والزجّاج من بعدهما، وكلهم عجم في أنسابهم، وإنما ربوا في اللسان العربي فاكتسبوه بالمَرْبَى ومخالطة العرب وصيّروه قوانيناً وفنـــاً لمن بعدهم. وكذا حملة الحديث

---

1 ص ٩٢٩ من المقدمة.

2 ص ١٢٤٧ وما يليها من المقدمة.

الذين حفظوه عن أهل الإسلام ، أكثرهم عجم أو مستعجمون باللغـــة والمَربَى . وكان علماء أصول الفقه كلهم عجماً ، وكذا حملة علم الكلام وكذا أكثر المفسرين . ولم يقم بحفظ العلم وتدوينه إلا الأعاجم .

وأما العرب الذين أدركوا هذه الحضارة وسوقها وخرجوا اليهـــا عن البداوة، فشغلتهم الرياسة في الدولة العباسية وما دفعوا اليه من القيام بالملك عن القيام بالعلم ، والنظر فيه ... فهذا الذي قررناه هـــو السبب في أن حملة الشريعة أو عامتهم من العجم .

وأما العلوم العقلية أيضاً فلم تظهر في الملّة إلا بعد أن تميّز حملة العلم ومؤلفوه، واستقر العلم كله صناعة ، فاختصت بالعجم وتركتها العرب ، وانصرفوا عن انتحالها فلم يحملها إلا المعربون من العجم شأن الصنائع » .

هذا عن رأي ابن خلدون الذي يتضح لنا من خلال نصه في مقدمته .

أما الشهرستاني في كتابه « الملل والنحل » فيرى : « أن حكماء العرب شرذمة قليلة لأن أكثر حكَمهم فلتات الطبع وخطرات الفكر » .

وهذا القول من جانب الشهرستاني لا يحمل كل المعاني التي سبق أن رأيناها عند صاعد الأندلسي وابن خلدون . إنه حين يتحدث عن تقسيم أهل العالم يقول : من الناس مَن قسم أهل العالم بحسب الاقاليم السبعة . وأعطى أهل كل إقليم حظه من اختلاف الطبائع والأنفس التي تدل عليها الالوان والألسن . ومنهم من قسمه بحسب الأمم فقال كبار الامم أربعة : العرب والعجم والروم والهند، ثم زاوج بين أمة وأمة . فذكر أن العرب والهند يتقاربان على مذهب واحد وأكثر ميلهم الى تقرير خواص الأشياء والحكم بأحكـــام الماهيات والحقائق، واستعمال الامور الروحانية . والروم والعجم يتقاربان على مذهب واحد ، وأكثر ميلهم الى تقرير طبـــائع الاشياء والحكم بأحكام الكيفيات والكميات واستعمال الأمـــور الجسمانية .

ومنهم من قسمهم بحسب الآراء والمذاهب [1] .

وحول رأي الشهرستاني هـذا ، دارت بعض المناقشات الحديثـة . فأحمـد أمين مثلاً يقول في فجر الإسلام : لاحظ بعض المستشرقين أن طبيعة العقل العربي لا تنظر الى الاشياء نظرة عـامة شاملة ، وليس في استطاعتها ذلك . وقبله لاحظ هذا المعنى بعض المؤلفين الأقدمين مـن المسلمين . فقد جاء في الملل والنحل للشهرستاني عند الكلام على الحكماء : الصنف الثـاني حكماء العرب وهم شرذمة قليلة وأكثر حكَمهم فلتات الطبع وخطرات الفكر .

أما مصطفى عبد الرازق فيقول في معرض نقده لرأي أحمد أمين : « ولست أرى أن كلام الشهرستاني بسبب من عجز العقل العربي عـن النظر الى الاشياء نظرة شاملة، بل قد يكون على عكس ذلك . فإن الذي يُفهم من نصوص الشهرستاني، هو أن العرب والهند يميلون الى الأحكام الكلية والأمور العقلية والمجردات، وهم ينزعون الى الروحانيات ، بخلاف الروم والفرس الميالين الى الأمور الجزئية والى تتبع آثار الطبائع والأمزجة وما يقع عليه الحس من الأجسام والجسمانيات » [2] .

وإذا كنا قد ذكرنا رأي أحمد أمين ورأي مصطفى عبد الرازق، فإننا نود أن نشير من جانبنا الى أن الشهرستاني رغم أن قوله لا يحمل المعاني والدلالات التي عبّر عنها بعد ذلك أمثال: رينان، وجوتييه ، والتي سبق أن أشرنا اليها ، إلا أن إشارته لقلة الحكماء عند العرب تارة وقوله بفلتات الطبع تارة، ومقابلته بين العرب والهند من جهة والروم والفرس من جهة أخرى تارة ثالثة ، يؤدي بنا الى القول بأن رأي الشهرستاني فيه بعض المعاني التي يفهم منها نقد العقلية العربية .

---

١ الملل والنحل جزء ١ ص ١٢

٢ تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية – تأليف مصطفى عبد الرازق ص ٣٣ – ٣٤

فهو يسوي بين الروم والفرس . وهذه التسوية لهـــا دلالتها ، إذ أن الفرس من العجم ،ولفظ الروم اذا كان العرب يطلقونه تارة على القاطنين الامبراطورية الرومانية الشرقية، فإنهم على وجـــه الخصوص يطلقونه على اليونان . فـــاذا كان الشهرستاني يسوي بين اليونان والعجم ويجعلهم على تقابل مع العرب والهنود ، فان هذا يؤدي بنا الى الرأي الذي قلناه حول فهمنا لمقالة الشهرستاني في هذا المجال .

ثالثاً ــ الدفاع عن الفلسفة العربية :

قد لا يكون من المناسب، ونحن في أواخر القرن العشرين، أن ندافع عن الفلسفة العربية ونرد على التهم التي وجهها نفر من المستشرقين اليها، إذ أن الكثير من هـــذه الاتهامات قد أصبحت متهافتة متناقضة بعـــد الدراسات العميقة التي قام بهـــا الكثيرون من الدارسين المنصفين سواء في الشرق أو في الغرب ، والتي أثبتت بما لا يدع مجالاً للشك أن هنـــاك الكثير من العناصر الجديدة والأصيلة ، والعديد من القضايا الفلسفية التي اختص بها فلاسفة العرب دون غيرهم ممن سبقهم من فلاسفة اليونان .

بيد أن هذا لا يمنعنا من أن ندافع بدورنا عن حقيقة الفلسفة العربية وعن الدور الذي قام به فلاسفة العرب سواء في المشرق أو في المغرب .

إذا كنا قـــد ذكرنا فيما سبق ونحن بصدد عرض دعـــاوى نفر من المستشرقين ، أن البعض منهم قد زعم أن القرآن الكريم كان عائقاً لحرية الفكر أو بالأحرى وقَفَ في سبيل النظر الفلسفي ، فـــان هذه الأقوال ومـــا دار مدارها تعدّ عندنا من قبيل الأقوال التي يحلو لأصحابها أن يطلقوها ، دون الاعتماد على أساس ثابت متين . إذ كيف يكون القرآن حائلاً بين المفكرين وبين تقدم البحوث الفلسفية ،في الوقت الذي يرى فيه الدارس الكثير مـــن المذاهب والنظريات الاسلامية التي تقوم على أساس

العقيدة الإسلامية ، والتي عبّرت خير تعبير عن روح الحضارة العربية في عصر قوتها وازدهارها ومجدها .

هذا بالإضافة الى أننا لو استعرضنا مذاهب متكلمي الإسلام وفلاسفته ومتصوفيه، وجدنا أن المصدر الإسلامي كان من المصادر الأساسية والهامة والتي اعتمد عليها هؤلاء المفكرون . فآيات القرآن تدعو الى النظر العقلي والبحث في حقائق الكون . ومن هذه الآيات قوله تعالى: « إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا بـــه الأرض بعد موتها وبث فيهـــا من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخّر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون » .

وقوله تعالى : « فاعتبروا يا أُولي الأبصار » .

وقوله تعالى: « أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء » .

وقوله تعالى : « ويتفكرون في خلق السموات والأرض » .

وقوله تعالى : « أفلا ينظرون الى الإبل كيف خُلقت والى الســماء كيف رُفعت » .

واذا كانت هذه الدعوة التي تذهب الى أن الدين الاسلامي الذي يعتنقه فلاسفة العرب يعوق حرية الفكر ولا يشجع على النظر العقلي، اذا كانت هذه الدعوة تعدّ خاطئة ، فان الزعم بوجود فوارق بين الأجناس بمعنى القول بأن العرب الذين يرجعون الى الجنس السامي لا يستطيعون ، بحكم طبيعتهم، أن يبتدعوا فلسفات جديدة، بعكس الاوروبيين الذين ينحدرون عن الجنس الآري . نقول إن هذه الدعوة التي يرددها بعض المستشرقين والتي تعتمد على التمييز بين طبيعة عقلية سامية وطبيعة عقلية آرية ، تعدّ خاطئة أيضاً ، إذ أن مصدرها التعصب الجنسي . ولهذا وجدنا الكثير من

المفكرين أمثال بول ماسون أورسيل — فيما سبق أن أشرنا — يتجهون الى إبطالها من بعض زواياها .

واذا كان هناك من المستشرقين من زعم بأن العرب لم يفعلوا في حقل الفلسفة شيئاً إلا نقلهم دائرة المعارف اليونانية ، فان هذا الزعم لا يستند الى أساس . صحيح أن مفكري العرب قد تأثروا بمفكري اليونان . هذا لا جدال فيه . ولكن صحيح أيضاً أن مفكري العرب قد أثْروا بدورهم الحياة العقلية ثراء منقطع النظير . إنهم أضافوا الى دائرة المعارف اليونانية إضافات هي جديرة بأن يتدارسها الباحثون والدارسون . إنهم قد توصلوا الى آراء وحلول جديدة خاصة بهم . وذلك يرجع الى أن للفلسفة العربية، كما سبق أن أشرنا، قضاياها ومشكلاتها الخاصة بها والتي لم تُعرف عند مفكري الإغريق .

واذا كان فلاسفة العرب قد تأثروا كثيراً بالتراث الفلسفي اليوناني ، فإن هذا يعدّ شيئاً طبيعياً الى حد كبير . أي أنه يعد مظهراً من مظاهر الصحة لا من مظاهر المرض . فالفلسفة اليونانية نفسها قد تأثرت بالعلوم الشرقية ، كما أخذ كل فيلسوف عن غيره . ففيثاغورث قد تأثر بعلوم الشرق . وأفلاطون — فيما يقول المؤرخون — قد زار مصر القديمة وأعجب بمعارف الشرق . كما تأثر أرسطو بمن سبقوه تأثراً كبيراً . وفلاسفة العصر الحديث قد تأثروا بفلاسفة اليونان .

وعلى هذا، فلا توجد أصالة خالصة من كل زواياها . بمعنى أن كل فيلسوف قد تأثر بغيره . ويمكن أن نجد عند الكثير من الفلاسفة، بعض العناصر التي استقوها عن الذين سبقوهم .

يقول (ديورانت) في كتابه « عصر الايمان » من قصة الحضارة : « إن كتابا الشفاء والقانون من الكتب الخالدة على مر الزمان » . كما يقول أيضاً في معرض دفاعه عن ابن سينا فيلسوف المشرق الكبير : « إن

نزلاء المستشفيات العقلية هم وحدهم المبدعون تمام الإبداع والذين لا يتأثرون بعقول غيرهم .

قلنا إن للفلسفة العربية موضوعاتها التي تختلف في بعض زواياها عن موضوعات الفلسفة اليونانية . إذ أن الفلسفة العربية قد تأثرت دون شك بالبيئة التي نشأت فيها والتربة التي نمت عليها وترعرعت . وحينما انتقل تراث فلاسفة اليونان، وخاصة أرسطو، الى مفكري العرب ، أدركوا ما في مذهبه من نقص وما فيه من مسائل تخالف العقيدة الإسلامية وما فيه أيضاً من مسائل تركها أرسطو دون حل قاطع . ومن هنـــا بدأ فلاسفة العرب في سد الثغرات التي وجدوها في مذهب أرسطو .

ونظراً لإعجابهم الكبير بأرسطو وغيره من الفلاسفة ، نراهم يحاولون الدفاع عن الفلسفة قائلين إنها لا تتنافى مع الدين . ومن هنا نشأ موضوع التوفيق بين العقل والوحي ، أو بين الحكمة والشريعـــة ، أو بين الفلسفة والدين، حتى تبدو الفلسفة وكأنها لا تخالف العقيدة الدينية، وحتى لا يجد بعض المفكرين مجالاً للطعن على الفلسفة ، ومحاولة تصويرها بأنها تخالف العقيدة الإسلامية . لقـــد حدث امتزاج عجيب بين فكر فلسفي يوناني وفكر طابعه وجوهره الديانة الإسلامية .

ولا شك أن الدارس المقـــارِن بين الفكر الفلسفي اليونـــاني والفكر الإسلامي، يجد أن المسلمين قد واجهوا مشكلات جديدة لم يثرها باستفاضة فلاسفة اليونان ، كمشكلة النفس وخلودها ، ومشكلة العلاقة بين الخالق والمخلوق، ومشكلة الوحي الإلهي ، وغير ذلك من مشكلات . إن هـــذه المشكلات لم يبحث فيها فلاسفة اليونان ، لأن هذه الفلسفات لم تنشأ في إطار ديني ، كذلك الإطار الذي نشأت فيه الفلسفة الإسلامية .

يقول الدكتور ابراهيم مدكور : « إن الفلسفة الإسلامية تعنى بمشكلة الواحد والمتعدد ، وتعالج الصلة بين الله ومخلوقاته ، وتحـــاول أن توفق

بين الوحي والعقل ، بين العقيدة والحكمة ، بين الـــدين والفلسفة ... فالفلسفة الإسلامية وليدة البيئة التي نشأت فيها والظروف التي أحاطت بها، وهي، كما يبدو، فلسفة دينية روحية[1] .

فلاسفة العرب إذن قد وجهوا اهتمامهم، الى حد كبير، ببحث مشكلة التوفيق بين العقل والنقل ، وقد قيل إن هـــذه المشكلة معقد الطرافة في الفكر الفلسفي الإسلامي ، وأنها تميّز هذا الفكر عما عداه . ولسنا الآن بصدد الرد على هذا القول ، ونكتفي بأن نذكر بأنه على الرغم من أن محاولة التوفيق هذه لم يقدّر لها النجاح أحياناً ، بالإضافة الى ما فيها من تعسف وتأويل لا يسمح به نص أرسطو ، وعلى الرغم من هذا كله ، فإن فلاسفة العرب حين حاولوا التوفيق بين دينهم الذي يدينون به وبين الفلسفة اليونانية ، فإن هذا في حد ذاته يعدّ سمة تميز بها الفكر الإسلامي ولا نجدها بين ثنايا بحوث الفكر اليوناني .

ننتهي بعد هذا كله الى تأكيد ما ذكرناه في الصفحات الأولى من أن هنـــاك فلسفة عربية لها قضاياها ولها مناهجها ولها مشكلاتها التي تختلف في قليل أو في كثير عن قضاياها ومناهج ومشكلات الفلسفة اليونانية .

ولا يخالجنا الشك في أن هذه الآراء والنظريات التي تركهـــا فلاسفة العرب ، لجديرة بأن يشتغل بها ويبحث فيها دارسو الفلسفة ، سواء في الشرق أو في الغرب ، لأنهـــا تعدّ حلقة من حلقـــات التراث الفلسفي الانساني العالمي .

محمد عاطف العراقي

---

١ في الفلسفة الاسلامية : منهج وتطبيقه ص ١٥